تاريخ محمد علي باشا

الحملة على بلاد الشام

كانت بلاد الشام على ما وصفناها بهِ في العام الماضي في تاريخ الامير بشير الشهابي داراً للفتن ومغنماً لكل افّاق يلتزمها الولاة ويأتونها اجوع من ذئاب فيبتزون اموالها ويرهقون سكانها

الارض طيبة والفلاّح مجتهد يعمل في حقلهِ نهاراً وليلاً يغرس توتهُ ويربي دودهُ ويحل حريرهُ ويبيعهُ من التجار فيسلب عامل الناحية ثمنهُ منهُ ضرائب ومغارم ويؤدّيهِ الى الوالي ثمناً لمنصبهِ او ابقاء لما فرضهُ عليهِ والوالي يجمع الاموال ويبعث بها الى دار السلطنة تباعاً والاّ عزل من منصبهِ

وبلاد الشام متوسطة بين اسيا واوربا تمرُّ فيها تجارة الهند وفارس وبلاد العرب ذاهبة الى الغرب وتجارة البلاد الاوربية ذاهبة الى الشرق . موارد الكسب فيها كثيرة ولكن لا يبقى منهُ شيءٌ لاهاليها . وحبل التجارة بين مصر والشام متصل ولكن مواردها تصبُّ في هوتين وتنفق على تعبئة الجيوش وترفيه العظماء

ظفرنا بالامس بكتاب فيهِ ترجمة الذائع الصيت الدكتور ميخائيل مشاقه نزيل دمشق كتبهُ بيدهِ ووصف فيهِ ما رآهُ في زمانهِ في النصف الاول من القرن التاسع عشر فرأينا بين فصولهِ دلائل كثيرة على احوال البلاد المالية والاجتماعية من ذلك ان خالهُ الخواجه بطرس عنحوري نزيل مصر مضى الى جبل لبنان سنة ١٢٣٧ هـ ليطبب ابنتهُ من مرض اصاب عينيها واشترى موسم الحرير من الشيخ بشير جنبلاط وكان ينيف على الف واربعماية اقة (ولعلها كانت تساوي حينئذٍ عشرة الآف جنيه او حواليها) وكتب لهُ صكًّا بالثمن كفلهُ فيهِ بيت مشاقه ثم اراد صاحب الترجمة ان يهاجر هو وذووهُ الى القطر المصري مع الامير بشير الشهابي فمضى الى الشيخ بشير ليقدّم لهُ رهناً بدل الكفالة فقال لهُ الشيخ بشير خذ الرهن فاني اعرف ما انتم عليهِ وانا لم اطلب من خالكم كفالةً بل انتم كفلتموهُ من تلقاء انفسكم ثم لماذا انتم عازمون على السفر . فاجابهُ اننا نخشى من اعداء الامير بشير ان يسعوا في ضررنا . فقال الشيخ بشير ان الامير وان غاب عنا شخصهُ فنحن دائمًا تحت امرهِ ولا ينالكم مكروهٌ الاّ ما يفوتني علمهُ خذ الرهن وابقوا في بيوتكم واعمالكم وعسى الله ان يسهل طريق الامير ويردهُ الينا في اقرب وقت

قال صاحب الترجمة فرجعت واخبرت الامير فقال ابقَ اذًا مع اخوتك كما قال لك الشيخ بشير ثم اقلع من معلقة الدامور قاصدًا القطر المصري ولم يأخذ معهُ سوى مئة من اتباعهِ

وفي هذا الخبر البسيط دليل على وفرة الثروة في بلاد الشام وصدق المعاملة وائتمان الناس بعضهم بعضًا حتى في عصر القلاقل والفتن

وحدث قبل ذلك ان الامير بشيرًا لجأ الى حوران من وجه والي صيدا، قام اليها فجأة ولم يكن في خزينتهِ من النقود سوى ٢٨٠٠٠ غرش وبعث الى الخواجه جرجس مشاقه ابي صاحب الترجمة ليستدين لهُ مئة الف غرش (تساوي اربعة آلاف جنيه بمعاملة هذه الايام) من تاجر من تجار دمشق وكتب لهُ سندًا بالمبلغ وارسل معهُ من شيلان الكشمير والفراء ما ثمنهُ ثمانية آلاف جنيه او اكثر ليضعها رهنًا عند صاحب الدين. فذهب واخبر رجلاً من تجار الحرير في دير القمر اسمهُ بطرس الجاويش وكان في دمشق ليبحث لهُ عن صرّاف يدينهُ هذا المبلغ . وفي صباح اليوم التالي جاء بطرس الجاويش ومعهُ رجل مهيب المنظر اسمهُ السيد محمد الجوخي ويتبعهما زنجي حامل كيسًا ثقيلاً ولما جلس قال ان الخواجه بطرس اخبرني عن المبلغ اللازم لسعادة الامير فاحضرتهُ في هذا الكيس . قال صاحب الترجمة فعددناهُ فاذا فيهِ ما يساوي مئة الف غرش (٤٠٠٠ جنيه) وكلها من ارباع الذهب الفندقلي ذي الزنجير وكانت تلك النقود نادرة حينئذٍ . وقال السيد محمد اني اخترت هذا الصنف من النقود لان الامير في غربة وسائر اصناف الذهب تحتاج الى الوزن لانهُ يكثر النقص فيها ثم ان التعامل بالارباع اسهل من التعامل بغيرها. فكتبنا اسمهُ في السند وقدمناهُ اليهِ وسألناهُ الى اين يريد ان نرسل لهُ الرهن فضحك وقال ان الامر كتب سندًا وارسل رهنًا لانهُ كان يظن انكم قد تأخذون المال من رجل لا يعرفهُ اما انا فو إن كنتُ لم اتشرف بمعرفتهِ قبلاً الاَّ انني سمعت عنهُ واشكر معروفكم لانكم كنتم الواسطة لاتصالي بهِ وها انا مستعد ان اقدم لسعادتهِ كل ما املكهُ . ثم شقَّ السند وارجعهُ الينا ولم يقبل استلام الرهن . وارسلنا النقود الى الامير مع السند المشقوق واخبرناهُ بما توقَّع وان الرهن باقٍ تحت امرهِ فجاء الجواب منهُ وعن طيهِ تحرير الى السيد محمد الجوخي يشكرهُ فيهِ على معروفهِ ويخبرهُ ان النقود البالغة مئة الف غرش (اي اربعة آلاف جنيه) وصلت مع السند الذي شقهُ ولكنهُ يؤمل منهُ قبول الامتعة المرسلة واذا ابت عليهِ شهامتهُ ان يقبلها رهنًا فليقبلها وديعةً للاحتفاظ بها من التلف بالاسفار

فرضي السيد محمد بذلك واستلم الامتعة كوديعة للمحافظة عليها . ثم لما عاد الامير الى لبنان بعث يدعوهُ اليهِ وانزلهُ في افخر مكان من سراي بيت الدين واحتفل بهِ احتفالاً عظيمًا

ولما اراد الرجوع الى دمشق بعد عشرة ايام البسهُ فروًا فاخرًا وقدَّم لهُ فرسًا من جياد الخيل وامر ان يدفع اليهِ مبلغ الدين مضاعفًا وارسل معهُ كتيبة من الفرسان توصلهُ الى دمشق

وهذه القصة من اقوى الادلة على توفر الثروة في البلاد وحسن المعاملة فيها وعلى انهُ لو خلت البلاد من عوامل التخريب والتدمير ولو عرف ولاة امرها كيف يقون لها موارد الثروة ويدرأون عنها اسباب الضعف والفاقة لما كنَّا نحسد الآن مملكة من الممالك الاوربية

هذا ولنعد الى حديث الامير بشير وحملة ابرهيم باشا على بلاد الشام فنقول

ان الامير بشيرًا لجأ الى القطر المصري لكي يستمين بمحمد علي باشا على استرضاء الدولة عن عبد الله باشا والي صيداء. فان عبد الله باشا هذا كان صنيعة الامير بشير فلما تقلد الولاية ذكر الجميل واقرَّ الامير على ولاية الجبل ولم يصغ الى قول الوشاة وكان تدبير امورهِ في يد رجل يهودي اسمهُ حاييم فارحي وهو سبب توليتهِ على ولاية صيداء فانهُ استعان بالمعلم حزقيال الاسرائيلي الذي كان صرَّاف الباب العالي وارضى الدولة فولتهُ على صيداء واعطتهُ رتبة الوزارة فجعل مدينة عكاء الحصينة مقر ولايتهِ كغيرهِ من الولاة السابقين

قال الدكتور مشاقه في سيرة حياتهِ " ان عبد الله باشا لم يتصرف بالرزانة المطلوبة منهُ بل صار يخالط الاوباش ويعاشرهم ويعقد حلقة الذكر منهم وكان المعلم حاييم مملوءًا حكمة وتهذيبًا فساءهُ هذا التصرف وقدم لهُ النصيحة الواجبة لانهُ كان صادق الخدمة وهو يظن ان عبد الله باشا ينتصح بنصحهِ ويراعي حقوق صداقتهِ لكنهُ لم ينتصح بل اخبر خلافًا بما قالهُ لهُ المعلم حاييم فقالوا ان هذا اليهودي قد عتا وتكبر على اهل الاسلام حتى ان البعض صاروا يقبلون يدهُ وقد قال القرآن العظيم ان اليهود اشد عداوة للذين آمنوا فكيف يليق بمسلم مثلك ان يأتمنهم ويعاملهم وان عمك المرحوم سليمان باشا كان رجلاً سادجًا فكان يسلك قرون البقرة واليهود يحلبونها ويشربون لبنها وقد صارت الخزينة كلها في بيت هذا الرجل ولا احد يعرف ما دخلها وماخرج منها والخزينة بيت مال المسلمين فهل يجوز وضعها في بيت يهودي وائتمانهُ عليها . وبمثل هذا الكلام احتالوا على هلاك المعلم حاييم فاولاً طلب منهُ عبد الله باشا ان يحضر مال الخزينة من بيتهِ ويضعهُ في سراي الحكومة وثانيًا امرهُ ان يلازم بيتهُ وسلم الخزينة الى المعلم يوسف قرداحي من موارنة صيدا بعد ان عرضها على المعلم جرجس مسديه فرفضها وهو من كتَّاب الخزينة . واجتمع الشيخ مسعود الماضي وعمر افندي البغدادي عند عبد الله باشا وقالا لهُ ان جميع المسلمين فرحوا برفعك نير هذا اليهودي عن اعناقهم وبمقدار فرحهم يخافون من مكرهِ وسحرهِ لانهُ ساحر ماهر وزد على ذلك ان لهُ كلمة مسموعة في الباب العالي

بواسطة المعلم حزقيال الذي سعى في توجيه الولاية اليك ورعاية لخاطر حايم فلا بدّ من ان حايم يكتب اليه الآن بما حدث والذي يقدر على التولية يقدر على العزل لا سيما واليهود اغنياء والدولة تفتش عن المال لا عن الرجال فما دام حايم في قيد الحياة فلا يستريح البال من تدبيره

فصمّم عبدالله باشا على قتله غير مقدّر العواقب وارسل تلك الليلة ابرهيم بك الجركسي زوج اخته وامره بقتله فناداه الى خارج منزله وخنقه وطرحه في البحر

قال الدكتور مشاقه وقد اسف العقلاء كلهم على فقد هذا المدبّر الحكيم ولا سيما الامير بشير الشهابي وصار يترقب وقوع الخلاف بينه وبين عبدالله باشا حاسبًا انه لا بدّ وان يصير يصغي الى اهل الدسائس والفتن . ونزح كبار التجار من عكاء الى بيروت ولبنان حذرًا من تقلب عبدالله باشا بعد ان رأوا ما فعل بمدبر اموره وسبب نعمته وشرع عبدالله باشا يصادر الامير بشيرًا من ذلك الحين والامير يستعطفه بواسطة المعلم بطرس كرامه الشاعر المشهور لانه كان لعبد الله باشا المام بالادب فاذا حضر المعلم بطرس في مجلسه سحره بظرفه وادبه وجعله يرضى عن الامير واذا خرج من عنده غيّره المفسدون عليه زاعمين ان الامير مسيحي كافر لا تجوز موالاته وان بطرس كرامه ساحر يأتي ويسحره ويغير افكاره . ودام الحال على هذا المنوال الى ان تمكن اقارب المعلم فارحي من استخاط الدولة على عبدالله باشا فعزلته واضافت ولاية صيدا الى درويش باشا والي الشام . وبلغ عبدالله باشا ذلك فارسل الى الامير بشير يطلب منه ان يرسل اليه جدعون الباحوط وهو من اهالي ساحل بيروت وكان رجلاً وجيهًا مستقيم السيرة حسن السريرة وكان الامير يرسله في مهامه الى عبدالله باشا فلما استخدم المعلم بطرس كرامه فارسله اليه فاخبره عبدالله باشا ان اليهود سعوا فيه عند الدولة فعزلته وولّت درويش باشا وابقت ذلك مكتومًا حتى يذهب درويش باشا الى الحج ويرجع وقد هيئت لمساعدته مصطفى باشا والي حلب وبرهام باشا والي ادنه وقال له قل للامير ان كنت تثبت معي فانا اقدر على مقاومتهم فكان جواب الامير انه عبد طائع له يسفك دمه في خدمته . وتمّ الاتفاق بين عبد الله باشا والامير بشير على ضرب درويش باشا قبل وصول والي حلب ووالي ادنه فضرباه وجاهر عبدالله باشا بالعصيان وامتنع في عكاء وحصرتها جنود الدولة فعزم الامير بشير على المجيء الى القطر المصري والالتجاء الى محمد علي باشا ليتوسط لدى الدولة في العفو عن عبدالله باشا وتثبيته في ولايته كما تقدم

وفصّل الشيخ طنوس الشدياق صاحب كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان خبر مهاجرة الامير بشير الى مصر فقال انه سار مع الامير ولداه الامير خليل والامير امين واربعة

وتسعون رجلاً من خدمهِ منهم سبعة من بني الدحداح حتى اذا وصلت السفينة بهم الى العرنة امام دمياط التقاهُ نائب سلطنها بكل احترام وكتب يسلم الى الاسكندرية يخبر العزيز بحضورهِ فامرهُ العزيز ان يسير الامير الى مصر وكتب الى مدبرهِ فيها ليقدم لهُ ما يلزم من الاكرام والمبرة وانزلهُ في قصر من قصورهِ وزارهُ ابرهيم باشا مرارًا وكان يذكرهُ في امور لبنان . ثم لما عاد العزيز الى مصر من الاسكندرية عاملهُ بمزيد الاكرام . انتهى

وكان محمد علي قد استحضر اناسًا من جبل لبنان زرعوا لهُ التوت في القطر المصري وحاولوا تربية دود الحرير فيهِ فلم يفلحوا لان بزر الدود كان يفقس قبل ظهور ورق التوت لشدة الحر ولم يكن يخفى عليهِ مبلغ ثروة سورية من حريرها ومن وقوعها في طريق التجارة بين المشرق والمغرب ولا بدَّ من انهُ كان يريدُ الاستيلاء عليها بعد ما اخمد ثورة الوهابية وتمهدت لهُ السودان وصار عندهُ من الجنود المنظمة اكثر مما عند الدولة العلية لاسيما وان الدولة كانت في ارتباك تام من حيث تنظيم جنودها فلما اتى الامير بشير اليهِ بالغ في اكرامهِ لكي يصطنعهُ ويستعين بهِ عند الحاجة اليهِ واراهُ اولاً مقدار قوتهِ وثروتهِ وحسن تنظيمهِ لبلادهِ ثم اراد ان يعرف مقدار قوة لبنان فسألهُ عما اذا كان يستطيع ان يمدهُ باربعة الآف مقاتل من رجالهِ الاشداء لحرب اليونان فقال انهُ يستطيع ذلك ويفعلهُ عن طيب نفس ولما عاد الى الجبل كتب اليهِ محمد علي ان يعدَّ لهُ الرجال كما وعد فاجابهُ انهم مستعدون ومنتظرون امرهُ فكتب اليهِ ثانية ان لا داعي لهم

وبسط الامير الى محمد علي رجاءهُ الذي جاء لاجلهِ وهو استعطاف الدولة على عبدالله باشا والي صيداء فكتب محمد علي الى الاستانة وتمكَّن بما لهُ من المكانة هناك من اصدار امرٍ عالٍ بالعفو عن عبدالله باشا وامر آخر يردهِ الى ولاية صيداء ويرفع الحصار عن عكاء ورجوع الولاة الى اماكنهم

ذكر الكولونل تشرشل في كتابهِ عن لبنان ان محمد علي استدعى الامير الى قصرهِ البديع في شبرا بعد ان ابان لهُ مكانتهُ في الاستانة بالحصول على العفو عن عبدالله باشا والي صيدا وكان جالسًا يحيط بهِ ابناؤهُ وخواص دولتهِ فلما دخل الامير نهض لهُ واستقبلهُ استقبال النظير للنظير وهش لهُ وبشَّ وعرَّفهُ بالذين حولهُ كأنهُ من اقرانهِ ومشيريهِ لا كأنهُ مهاجر ملتجئ اليهِ وامر بنزولهِ عندهُ تلك الليلة وفي اليوم التالي اخلى بهِ وقال لهُ ان بلاد الشام كانت خير بقاع المعمور لما كانت مع الديار المصرية لملك واحد ثم تولاها آل عثمان فاذهبوا بروتها واستنزفوا خيراتها وبلغ من ظلم ولاتها الذين يرسلون لادارة الاحكام فيها ان ارهقوا

الامير بشير الشهابي بالطربوش العسكري

محمد علي باشا بالطربوش العسكري

الرعية وجاروا عليها حتى صارت ارضهم قفرًا بلقعًا وجبل لبنان الذي اذا اسعده الله بوالٍ لا يخشى العزل والارهاق يصير جنة الله في ارضه صيروه بفساد سياستهم دارًا للحرب وميدانًا للخصام . ويقال جملة ان بلاد الشام كلها صارت بسوء ادارتها في حالة من الضعف والاضمحلال توجب على كل محب لبلاده ان يسعى جهده في تخليصها منها وتجهز لبلاد مجاورة لها مثل بلاد مصر ان تسعى جهدها في انقاذها . ثم جعل يصف حالة القطر المصري بعد ان اصلح زراعته وانشأ المصانع فيه ووسع نطاق تجارته وكيف ان ذلك كله وقع موقع الرضا والقبول لدى مولاه السلطان الاعظم كما يظهر من استعانة الدولة به على كبح جماح العصاة في بلاد اليونان وبيَّن له انه ينوي ضم بلاد الشام الى بلاد مصر عاجلاً او اجلاً ويعطيه ولاية لبنان له ولأولاده من بعده . ولما ودعه وعاد الى منزله رأى صرة فيها اربعة آلاف جنيه هدية منه . وبعد ايام ورد الفرمان من الاستانة بالعفو عن عبد الله باشا وبتثبيته في ولاية عكاء وصيداء فثبت للامير ما قاله الوزير من ان له في دار السعادة مقامًا رفيعًا وكلمة مسموعة

وعاد الامير الى بلاد الشام وقوبل في عكاء بالترحيب والاكرام واطلقت المدافع لقدومه وقرئ فرمان العفو وفرمان التولية فانصرف الوزراء الذين كانوا يحاصرون عكاء واعيد الامير بشير الى ولاية الجبل

وكل ما اصاب اهالي الشام من الظلم والارهاق لم يكن اشدّ وطأة مما كان يصيب فلاحي مصر في ذلك الحين حتى اضطرّ كثيرون منهم ان يهجروا بلادهم ويلجأوا الى بلاد غزة ويافا فكتب محمد علي الى عبد الله باشا يطلب منه ارجاعهم الى بلادهم فلم يهتم عبد الله باشا باجابة طلبه . وكتب اليه الامير بشير ايضًا يحذره سوء العقبى ان لم يجب عزيز مصر الى طلبه ويذكره بما له عليه من المعروف . وكان عبد الله باشا غرًّا مغرورًا فكتب الى الامير يقول ان الدولة رفعت الحصار عن عكاء لانها عجزت عنها وكيف لا تعجز وقد عجز عنها بونابارته وكانت محصنة بسور واحد والآن في محصنة بسورين وانه لا يسمح بان يؤخذ بزر دود الحرير من الجبل الى مصر كأنه كان يخشى ان يربي الدود في مصر ويكثر فيها الحرير فينقطع طلبه من جبل لبنان . وبلغ محمد علي ذلك فاغتاظ من عبد الله باشا واضمرها له وقام ينتهز الفرص الى ان وقع الخلاف في الجبل بين الامير بشير وحزبه والشيخ بشير جنبلاط وحزبه فارسل يعرض على الامير عشرة آلاف مقاتل فاجابه شاكرًا فضله وشاكيًا اليه تصرف عبد الله باشا في حمايته للشيخ بشير وكان والي دمشق قد قبض على الشيخ بشير وبعض رجاله بخديعة وارسلهم الى عبد الله باشا فأمر عبد الله باشا اولاً بحبسهم ثم انعم عليهم وطيَّب قلوبهم فكتب

الامير الى محمد علي يخبرهُ بذلك ويقول لهُ انهُ ما دام الشيخ بشير في قيد الحياة فلا سبيل الى راحة الجبل . فكتب محمد علي الى عبد الله باشا ليقتل الشيخ بشيرًا والشيخ امين العماد فقتلهما خنقًا وبقيت جثتاهما مطروحتين امام باب عكاء ثلاثة ايام كأنهما فرختان او حرتان وهما من اعظم رجال لبنان واولهما من اعاظم رجال المشرق ولكن اذا استحكل الظلم ضاعت الاقدار والنفوس

ثم تجدَّد الخلاف بين محمد علي وعبد الله باشا بسبب النازحين من القطر المصري وعلم محمد علي ان حكم الجبل قد تمهد للامير بشير وحدهُ ولم يبقَ لهُ منازع فيهِ بعد قتل الشيخ بشير والخذال حزبهِ فبعث بالجنود المصرية لتدويخ بلاد الشام وكتب الى الامير بشير يخبرهُ بذلك ويدعوهُ الى نجدة ابنهِ فجمع الامير بشير امراء الجبل ومشايخهُ في بيت الدين وبسط لهم واقعة الحال واستشارهم في الامر ففوضوا الرأي اليهِ لكن الدروز منهم خافوا العاقبة لانهم علموا انهُ ان صارت البلاد لعزيز مصر ضرب عليهم الضرائب الفادحة والمغارم الثقيلة واضطرهم الى الخدمة العسكرية . ولم يجاهروا برأيهم حينئذٍ بل تربصوا الى ان رأوا لهم فرصة للهرب والانضمام الى جنود الدولة ففعلوا . اما الامير بشير فلم يرَ لهُ مندوحة عن نجدة ابرهيم باشا ولعل رجالاً من الفرنسويين رغَّبوهُ في ذلك واغروهُ بهِ لانهم كانوا يعدونهُ بمجيء السفن الفرنسوية لمساعدتهِ كما سيجيء . هذا وسنقتصر في ما يلي على ما كتبهُ الدكتور ميخائيل مشاقه في ترجمتهِ عن حروب ابرهيم باشا في بلاد الشام لانهُ حضر كثيرًا منها وكان لهُ اتصال بها قال :

لما بلغ عبد الله باشا والي صيداء خروج العساكر من مصر اسرع يجهز كل ما يلزمهُ للحصار ونادى برفع اسعار المعاملة فزادها نحو عشرة في المئة وحضر الى الامير بشير عمدة بكتابة من الشيخ حسين عبد الهادي من مشايخ بلاد نابلس يخبرهُ عن وصول عساكر مصر الى اراضي غزة مع ابرهيم باشا ويسأل الامير عما يشير بهِ عليهِ فاجابهُ انهُ يحسن بالشيخ ان يلاقي ابرهيم باشا ويسير معهُ ومتى وصلوا الى امام عكاء فهو يسير للقائهم . وكنت قد اتيت الى الامير اسألهُ كيف يريد ان يتصرف الامير سعد الدين (امير حاصبيا وكان المؤلف مدبرًا لهُ) فاجابني متى انتهى امر عكاء فاخبر الامير سعد الدين وغيرهُ عما يجب عملهُ واما الآن فيجب ان يكون في طاعة والي الشام كعادتهِ . فكتبت اليهِ بذلك ونزلت الى بيروت لامر يخصني فلما وصلتها سمعت ان عساكر مصر بلغت صحراء عكاء وان ابرهيم باشا ارسل الى الامير بشير ليوافيهُ اليها فقمت الى عكاء في اليوم التالي ولما وصلتها وجدت اثنين وعشرين مركبًا حربيًا تحيط بها ثمانية من شمالها وثمانية من غربيها وستة من جنوبها امام برج الغربان ومن البر مدافع كثيرة على

تل الفخار وجميعها تضرب على عكاء باتصال وعكاء تضربها وكان دخان البارود مخيماً على المدينة حتى لم تعد ترى وبقي الضرب من الصباح الى قبل غروب الشمس بساعة ونصف فقامت المراكب الى حيفا ولم ترجع للضرب في ما بعد . والذي فهمتهُ ان المراكب قذفت على عكاء اكثر من سبعين الف كرة ولكن تعطل اكثرها من ضرب مدافع عكاء عليها . وبقيتُ هناك نحو عشرين يوماً وكان يخرج نحو خمسة آلاف من العسكر المصري كل ثلاث ليالي او اربع تحت ظلام الليل الى مكان بعيد ويرجعون عند شروق الشمس ايهاماً لعسكر عكاء ان عساكر مصر لم تزل تتوارد عليهم

واشتغل العسكر المصري بحفر الخنادق المعوجة المسماة عندهم طريق النار واقاموا متاريس قريبة من الاسوار ونصبوا عليها المدافع واتمّوا اعمالهم هذه في ظلام الليل لكي يتقوا نيران عكاء واستعرت نار الحرب بين المتاريس واسوار عكاء نهاراً وليلاً وكان جلّ ضرب المصريين على برج علي القريب من باب المدينة وكنت ارى انهم يعجزون عن فتح عكاء وابنت ذلك للخواجه حنا بحري فاجابني ان معنا نفراً من كبار المهندسين وهم يعلمون ما هو الاصلح

وكان في عكاء نحو ثلاثة آلاف من الجنود المجربين وكانوا يخرجون ويتحرشون بعسكر مصر ليجروهُ الى امام مدافع الاسوار فلا يفلحون لان ضباط الجيش المصري من ذوي الدراية التامّة وكانت الكتابات من الدولة تدخل عكاء ليلاً مع اناس يأتونها بالبحر سباحة . وفي احدى الليالي حدث قلق وضجيج في العسكر ثم سمع طلق البارود والصياح والاغاني الفلاّحية بمدح عبدالله باشا فظننا اولاً ان جيشهُ كبس الجيش المصري ثم تحقق لدينا ان ستماية رجل من اهالي نابلس عزموا على ان يحترقوا العسكر المصري ويدخلوا عكاء لمساعدة من فيها فاخترقوا المعسكر مشهرين السلاح وهم يضربون من يعارضهم والعسكر لا يستطيع ان يطلق عليهم الرصاص لئلا يصيب بعضهُ بعضاً ولما وصلوا الى عكاء اطلقوا عليهم الرصاص فلم يصيبوهم لان الظلام كان حالكاً ودخلوا عكاء سالمين وكنا نسمع صوتهم على الاسوار يدعون لعبدالله باشا بالنصر

وكان الخواجه حنا بحري مرسلاً من محمد علي باشا معاوناً لولده ابرهيم باشا مطلق التصرّف في ترتيب الملكية والمالية ومجالس الشورى فباشر اتمام ما يلزم في كل الايالة على اكمل وجه لانهُ كان من افراد الرجال في الذكاء وسمو العقل مع الاستقامة التامة في اقوالهِ وافعالهِ لمخدومهِ وللرعية

وبعد ان عرفت كل ما امكنني معرفتهُ عن عدد العسكر وهو ان عددهُ ثمانية الايات من المشاة فيها ثمانية عشر الف نفس وثمانية الايات من الفرسان فيها اربعة الاف ومعهم الفان من فرسان عرب الهنادي وثلاثة واربعون مدفعاً ومطبعة حجر رجعت الى دير القمر

وقابلت الامير اميناً وكان وكيلاً عن والده الامير بشير وطمنتهُ عن صحتهِ واخبرتهُ عما شاهدتهُ وسمعتهُ وسرت الى حاصبيًا واخبرت الامير سعد الدين عما رأيتهُ ايضاً وابنت لهُ ما كنت اظنهُ وهو انهُ يستحيل على المصريين ان يفتحوا عكاء عنوةً في مدة قصيرة ان لم يتيسَّر لهم فتحها من جهة البحر لان اسوارها من جهة البر على غاية المتانة والاحكام ولا تصل المدافع الاَّ الى اعاليها لانها مستورة بالارض العالية التي امامها وهي مفصولة عنها بخندق عميق

وبعث ابرهيم باشا امير آلاي اسمهُ يعقوب بك ببعض الجنود الى دير القمر ليكون محافظاً فيها وسار بفرقة من عسكرهِ الى طرابلس فهرب واليها من وجههِ فدخلها ورتَّب امورها وتوجَّه منها الى حمص ثم عاد الى معلقة زحلة ومنها الى عكاء

وارسلت الدولة عسكراً كثيفاً لقتال ابرهيم باشا بقيادة انجه بير قدار باشا والي حلب فجاء بالعسكر الى حمص ثم انتقل الى تل النبي مندو تحت قرية القصير على ضفَّة العاصي واقام هناك ينتظر قدوم العسكر النظامي لكي يسير معهُ الى عكاء عن طريق بعلبك والبقاع وبلغ ابرهيم باشا ذلك فارسل جانباً من عسكرهِ الى معلقة زحلة مع بعض المدافع ليصدوا العساكر العثمانية وشدَّد الضرب على عكاء وردم الخندق الذي امام سورها وهجم عليها برجالهِ فارجعتهُ مدافعها ثم جمع جنودهُ وخطب فيهم وعدَّد المعارك التي فازوا فيها في المورة والحجاز على اقوام اشداء غير ضعفاء كالمحصورين في عكاء وقال ان رجوعهم عنها خائبين عار لا يمحى على اسم العسكري المصري لا يقبلهُ اناس اشتهروا بالشجاعة والشهامة في اقطار العالم. ثم امر بالهجوم على عكاء في ذلك اليوم وان تسير المدافع خلفهُ ولا ترجع حتى تمتلك السور ثم ساق العسكر وفتحت جهنم ابوابها من الجانبين فكان اول الصاعدين على السور سليم بك ارتوز برمير الاي الطبجية وابرهيم آغا الوشماني معلم الفرسان من موارنة دير القمر ووراءهما ابرهيم باشا نفسهُ ولكن اصابت رصاصة ابرهيم الوشماني من سور عكاء الداخلي فقتلتهُ وحينئذٍ كثرت الجنود المصرية التي بلغت اعلى السور والتحم القتال مع رجال عبدالله باشا وكان قد قلَّ عددهم جدًّا من كثرة قتلاهم وجرحاهم فلجأوا الى داخل السور الداخلي ورأى عبدالله باشا ان الجنود المصريَّة امتلكت السور الداخلي وانهُ لم يبقَ عندهُ من المقاتلة سوى ثلثمائة وخمسين رجلاً فسلم لابرهيم باشا وفتح لهُ الابواب فدخل العسكر المصري واستباح المدينة واما عبدالله باشا فعومل بالاكرام وأُرسل الى مصر واحسن محمد علي مقابلتهُ ورتب لهُ ما يقوم بنفقاتهِ فاقام مدة في القطر المصري ثم طلب التوجه الى الاستانة فأُرسل اليها والتمس من الباب العالي ان يقضي بقية عمرهِ في الحجاز فأُرسل اليهِ ومات فيهِ . وارتفعت رتبة حنا بحري بعد فتح عكاء فصار امير لواء وصار يلقَّب

يجري بك وكان ابرهيم باشا يوقع المكاتبات الرسمية الحاج ابرهيم والي جدة والحبشة وسر عسكر عكا حالاً فصار يوقع سر عسكر عربستان

ثم رتب امور عكاء وامر بترميم ما تخرّب من اسوارها ومبانيها وشحنها بالذخائر والمهمات الحربية ووضع فيها الحامية اللازمة لها وجاءتهُ نجدات كثيرة من مصر فقام بالعسكر قاصداً مدينة دمشق ومعهُ الامير بشير وكان الامير بشير قد كتب الى ولدهِ الامير امين ليرسل اليهِ بعض اتباعهِ والى امراء حاصبيا وراشيا ليوافوهُ الى دمشق فسرتْ اليها مع الامير سعد الدين

وجميع علو باشا والي الشام عسكراً من الاكراد واولاد البلد واخرجهم لمقاتلة ابرهيم باشا وصدهِ عن دخول دمشق وكانوا نحو عشرة آلاف فنظرهم ابرهيم باشا من بعيد بالنظارات وعرف فرسان الاكراد من الشوام فوجه فرسان المنادي لمقابلة الاكراد ونبه على العسكر النظامي ان يقابل الشوام ولا يؤذيهم بل يطلق بنادقهُ في الهواء . وعند ما سمع الشوام صوت النار الدائمة فرّوا هاربين اما الاكراد فقاتلوا جهدهم ثم انكسروا وتبعهم فرسان المنادي يقتلون منهم . وبلغ علو باشا والي الشام انكسار عسكرهِ ففرّ من دمشق ودخلها ابرهيم باشا ولم يسمح لعسكرهِ بالاعتداء على احد واطلق المناداة بالامان وان يبقى الجميع في اعمالهم مطمئنين . واقام في دمشق الى ٤ صفر سنة ١٢٤٨ (٢ يوليو) ١٨٣٢ وترك فيها المعلم بطرس كرامة لترتيب مجلس الشورى وولى عليها رجلاً من خواصهِ اسمهُ احمد بك ريب كرد يوسف باشا احد ولاة الشام السابقين ثم خرج منها نهار الثلاثاء في ٥ صفر وعرفت عدد عسكرهِ كلهِ في ذلك اليوم وهو احد عشر الفاً من المشاة والفان من فرسان النظام وثلاثة آلاف من فرسان المنادي وثلاثة واربعون من المدافع وثلاثة آلاف من الجمال الحاملة للذخائر والمهمات وكان معهُ عباس باشا ابن اخيهِ طوسن باشا ويكن احمد باشا ابن عمتهِ . ونهار الاربعاء قام بالعسكر الى النبك ونزل الامراء في دير عطية وهناك طلب الامير ان يرجع اعيان دمشق الى بيوتهم فرجعوا . ونهار الخميس قام الى حسبه ونهار الجمعة انعطف عن طريق حمص الى طريق القصير ونزلت العساكر على شاطيء نهر العاصي عند تل النبي مندو حيث كان العسكر المثاني لانهُ لما بلغهُ فتح عكاء رجع الى حمص

وكان ابرهيم باشا يسير في رحلاتهِ قبل الفجر بثلاث ساعات فيصل الى آخر المرحلة عند الضحى وساعة وصولهِ ذلك اليوم الى محلة النبي مندو وصلت بقية العسكر القادمة من طرابلس ومعلقة زحلة وهي نحو ستة آلاف فبلغ مجموع العساكر المصرية وعسكر الامراء عشرين الفاً (اي المشاة ١١ الفاً والفرسان الفان والمنادي ثلاثة آلاف وعساكر الامراء اربعة آلاف) .

وكان المجموع ان العسكر العثماني في حمص اثنا عشر الفاً لا غير

ثم اجتمع ابرهيم باشا مع امراء العسكر واقروا على الخطة التي يجرون عليها وارسل فرسان المنادي عند نصف الليل الى حمص لمناوشة العساكر العثمانية وقام بعساكره عند طلوع النهار يوم السبت في ٩ صفر سنة ١٢٤٨ ورتب المشاة ثلاثة اقسام جعل البعد بين القسم والذي يليه نحو ميلين والامير بشير وسائر الامراء ورجالهم في ساقة القسم الاوسط وخلفهم الجمال الحاملة للذخائر والمهمات . وكان ابرهيم باشا على ظهر جواده يتردد بين الصفوف

ثم ضربت الموسيقات العسكرية ومشت صفوف العساكر في تلك السهول الفسيحة والرايات تخفق فوق رؤوسها فكان المنظر مهيباً جدًّا وكلما مشى العسكر اقل من ساعتين يقف يستريح وعند الساعة السادسة وربع عربية وصل الى قرية قطينة وهي على ثلاثة اميال من مدينة حمص فامتدَّ منها الى جهة نهر العاصي الشمالي الغربي ومنها الى الجنوب الغربي فكان امتدادهُ نحو خمسة اميال وكان عباس باشا بالفرسان والمدافع عن يمين العسكر واحمد باشا عن يسارهِ وجعل ابرهيم باشا مقامهُ في القلب على تل قطينة وصدر امرهُ للامير بشير بان يقيم بمن معهُ من الامراء والرجال عن يسار العسكر قرب نهر العاصي ولا يدخلوا ميدان القتال فنزلنا قرب تل عالٍ مخروطي الشكل وسند العسكر سلاحهُ ليأكل فتواردت فرسان المنادي على ابرهيم باشا بالرؤوس التي قطعوها والاسرى الذين اسروهم من عسكر الترك فانعم عليهم واثنى على بسالتهم . وكان معسكر الترك عند تل باب عمر بعيدًا عنا مسافة ميلين وعلى التل مدافع كثيرة وثارت ريح شديدة من جهة الغرب الشمالي في ظهرنا تنسف الغبار في وجه عسكر الترك وكانت الارض سهلاً ناعم التراب وقد زاد نعومة بحوافر الخيل فملأ الغبار الجو وسدَّ الانفاس وكان ذلك اكبر معين للجنود المصرية على الجنود العثمانية . فصعدتُ الى راس التل مع البعض لارى الحرب وكان فرسان المنادي يهجمون على فرسان الاتراك كالضواري ويخطفونهم من بين جماهيرهم الكثيرة فالعشرة منهم تقاتل المئة واذا تكاثر عليهم الرجال لم يهربوا الى الوراء بل ساروا عرضًا الى ان تأتيهم النجدات فيهجموا على اضعاف عددهم ويقهروهم عن مراكزهم . وقبل الغروب بثلاث ساعات نظرنا فارساً جاء مسرعًا من ساحة القتال ودنا من ابرهيم باشا فسار ابرهيم باشا الى حيث فرسان المنادي ولما رأيت ذلك ارسلت واخبرت الامير لانهُ كان لم يزل في خيمتهِ من شدَّة الرياح وكثرة الغبار فصعد الى قمة التل واخذ النظارة وجعل ينظر الى ساحة القتال فقلتُ لهُ اهؤلاء هم الاثنا عشر الفاً الذين قلتم عنهم في دمشق فاجابني قلنا هذا ولم يصل معنا الى هنا نصف الذين كانوا معنا فكيف لو قلنا

انهم ستون او سبعون الفاً ولكن لا توهمك كثرتهم لانهم عند ما يسمعون تحريق الفرسي يهربون (يريد صوت رصاص العسكر النظامي والفرسي في لغة اهل الجبل قماش القطن المعروف بالخام) وبينما نحن في الكلام وصل رصاص الاتراك الينا لان عسكرهم تقدّم من جهتنا فخشيت من اصابة الامير فتوسلت اليهِ لينزل و يعود إلى خيمتهِ من شدّة الرياح والغبار فقال لا بل انك خفت من الرصاص خلافاً لطبيعة اهل بلدك فاجبتهُ انني ان خفت فلا يكون خوفي على نفسي بل على سعادتك لانك روحنا الثمينة واذا نزلتَ ونزل عبدك ايضاً فيكون خوفي على نفسي فارجو ان تجتبرفي وتنزل. وغايتي الوحيدة نزولهُ . فاجابني انهُ على الانسان ان يتقي المخاطر حين لا يضطر اليها ولا يحسن بقاؤنا هنا ان كان منهُ خطر وكنت احتم على جميع الذين هنا بالنزول لو كان الامر كذلك ولكن لا خطر علينا لان الرصاص الواقع هنا لا عزم لهُ فيسقط سقوطاً من فروغ عزمهِ ولذلك لم يغرز في الارض بل تراهُ مطروحاً على وجهها

وصار فرسان الهنادي الذين في جهتنا يرجعون الى الوراء وعدوهم يهجم عليهم و يضطرهم الى التقهقر فقال الامير لا شك ان المشايخ النكدية مع الاتراك لان هذه الهجمات هجماتهم (وتحققنا بعد ذلك ان النكدية كانوا هناك مع عسكر مرعش) . والتفت فرأيت عسكراً من النظام عن بعد واخبرت الامير فقال لقد حضر جاسوس هذا الصباح من معسكرهم وقال انهم خمسة وخمسون الفاً وليس فيهم عساكر نظامية. ثم نظر بالنظارة فلم يرَ احداً من النظام ولكنني رأيت طرابيشهم الحمراء ولمعان اسلحتهم في نور الشمس فراجعتهُ واشرت الى مكانهم فاعاد النظر اليهم بالنظارة فتحققهم وقال لا بدّ من ان يكونوا قد وصلوا الآن . وكان الوقت قبل الغروب بساعتين وربع وجاء فارس من عند ابرهيم باشا وتكلّم مع القواد وللحال اصطفّت العساكر صفًّا واحداً في طرفيهِ الخيول والمدافع وعباس باشا مع فرسان الميمنة واحمد باشا مع الميسرة وضربت الموسيقات ومشى الجنود لمقابلة خصومهم فهرب الذين كانوا امامهم وتبعتهم فرسان الهنادي وهجم نحو خمسة الآف من فرسان الترك على ميمنة العسكر فردهم عباس باشا بنار المدافع وبقي سائراً عليهِ نحو خمسة عشر الفاً من فرسان الترك وهجموا دفعةً واحدة فتلقاهم بمدافع الرش فانكسروا وتركوا من قتلاتهم اكثر من الفي قتيل . وقبل الغروب بساعة استعرت نار الحرب بين كل الصفوف واتصلت النار الدائمة بالبنادق والمدافع من الجهتين وكانت مدافع الاتراك على تل باب عمر تقذف قنابلها على المصريين. ويا لها من ساعة شديدة الهول تفتحت فيها ابواب جهنم تصب نيرانها على المتحاربين. وعند غروب الشمس سكت صوت البنادق وبقي صوت المدافع إلى ما بعد الغروب بساعة ونصف ثم سكت واستولى الهدو التام وانت البشائر الى

الامير بتمام النصر وان انجه بيرقدار باشا هرب هو ومن معهُ من الوزراء وان عساكر الترك بعضهم قتيل وبعضها جريح وبعضها اسير والباقون تشتتوا

وصباح الاحد دخل الامير مدينة حمص وكانت الخيل تدوس على اشلاء القتلى مسافة ميل في سهل باب عمر وتسلَّم الامير احكام حمص ووجد بين الاسرى ثمانماية ارمني كانوا في خدمة العسكر فاطلقهم وارسلهم الى مطران الروم . والاسرى من العسكر كانوا الاياً كاملاً غير المفردات فارسلهم الى عكاء صحبة الشيخ حسين تلحوق . وجرحى الاتراك وهم نحو ستماية وخمسين سلَّموا للاطباء مع جرحى العسكر المصري وأُمر قاضي البلد ومفتيها بدفن القتلى ووكل كاتب هذه السطور بضبط متروكات الوزراء الهاربين وكانت محلتهم على نهر العاصي قرب جسر الميماس فوجدتهم تركوا خيامهم بفرشها حتى ان كاتب الديوان ترك دواتهُ الفضية واقلامهُ مع الورق على الارض والطبائخ باقية على النار محروقة وصناديق الادوية ونسالة الكتان وقماش الاكفان وعدد وافر من التراوي والبنشات للتلبيس ومهمات كثيرة ووجدنا مخزناً في محلة سيدنا خالد مملوءًا من البن الحجازي يكفي مؤونة مدينة . فاكملت مأموريتي ووضعت كل شيء في محلهِ

ومدينة حمص جيدة التربة معتدلة الهواء متسعة الارجاء تحيط بها قرى كثيرة ولكن اكثرها خراب من اعتداء عرب البادية عليها . واهالي المدينة نحو عشرين الفاً ربعهم نصارى والثلاثة الارباع مسلمون ولم ارَ فيها نصرانياً غير مولع بالسكر وكثير منهم يكتب خطاً جميلاً وقد خرج منها افراد مشهورون بالعقل والذكاء حال كون عامتهم تغلب عليهم السذاجة . وقد حكي لي قصص كثيرة عن سذاجتهم لا يسعني بسطها وانما اذكر ما شاهدتهُ بعيني وهو انهُ في اليوم الثاني من دخولنا حمص عُرِض للامير ان في ناحية تل باب عمر قتلى وجرحى من اولاد البلد يراد الكشف عنهم فارسلني لذلك فوجدتهم ثمانية رجال اربعة منهم قتلى واربعة جرحى فسألتهم عما اصابهم فقالوا اننا اتينا الى هنا للفرجة على مكان العسكر فوجدنا كرة محشوة وفتيلها ظاهر فاردنا ان نرى كيف تصعد وتهبط فاشعلنا الفتيل ووقفنا حولها ننتظر صعودها ولا نعلم ماذا اعاقها عن الصعود ثم فقست واصابنا منها ما تراهُ . فاذنت في دفن الموتى ومعالجة الجرحى ورجعت وعرضت واقعة الحال للامير فقال اكشبها عندك لكي يقف منها المعلم بطرس كرامة على درجة ذكاء اهل بلدهِ . وفيما بعد كنت اتكلم مع مجري بك فسألني عما رأيتهُ في حمص فمدحت لهُ هواءها وماءها قال وما قولك في اهاليها قلت اني وجدت لهم دعوى على سعادتك وعلى المعلم بطرس كرامة فقال وما هي قلت انكما سلبتماهم نصيبهم من العقل والذكاء فقال وكيف ذلك فقصصت عليهِ قصة الكرة (ستأتي البقية)